كنفاني ...بطل لا ينحني

١٩٨٩/٧/٨

كنفاني ...بطل لا ينحني

بقلم/ رفاق غسان

بمناسبة الذكرى السابعة عشر لاستشهاد المناضل

غسان كنفاني

مقدمـــــــة

"اقرأوا قصص غسان كنفاني، واجعلها يا شعب فلسطين قرآنك، غنوها وترجموها واحفظوها فهي اعمال تصنع الرجال". (١)

كثيرون من الكتاب، قالوا ان الكتابة عن غسان كنفاني ليست عملية سهلة، لان الكتابة هنا، لا تتناول كاتبا عابرا ترك للقراء مجموعة من الاعمال الادبية ورحل، فالقلم في حالة الكتابة عن غسان، تتشابك امامه مجموعة من العناصر والجوانب المتداخلة مع بعضها البعض في عملية جدلية رائعة، خاصة وان الادب الذي مداده يتدفق من شرايين ثائر ملتزم، حروفه لا يمكن ان يمحوها الزمن، بل تظل حروفا متحركة، تنبض بالحياة، يشع لونها القاني دوما تحت الشمس.

والادب الذي يقف وراءه قلم غاص في اوحال المخيم، وطاف مع صاحبه جميع ازقته، والتقى صباح مساء بالبؤساء الذين طواهم وحش التشرد والجوع، هذا القلم لا يمكن ان تكسره ظروف التجربة المرة، بل على العكس، فان المرارة تصله بالغذاء المادي والمعنوي باستمرار.

ثم ان الادب عندما يكون مبدعه ملما باوجه الفن الاخرى، يخرج للناس متكاملا، شموليا، يكسو عظامه لحم النضج.

وايضا الادب عندما تنبلج كلماته وتنطلق لتترجم احاسيس قائد حزبي، يتحمل مسئولية استثنائية تجاه حزبه وشعبه، يكون لهذه الكلمات لونا خاصا، وهزاقا خاصا، انه لون استشفاف المستقبل من خلال تناقضات الحاضر، وهزاق العمق والاصالة..

اجل لقد دخل غسان كنفاني سجل الخالدين عن جدارة واستحقاق، لانه اعطى كل ما يستطيع، ولم يبخل قط على شعبه وقضيته بطاقاته ومواهبه المتعددة، التي مكنته من تقليب اوجه الحياة بشكل اعم واشمل من اي كاتب آخر، فغسان القائد الحزبي، والصحفي، والرسام، الخطيب، المحاضر، الاديب، الباحث، الناقد والمربي.

كل هذه القدرات تداخلت وتمازجت صانعة شخصية متكاملة، شكلت قاعدة صلبة، وتربة خصبة، لادب خالد، تحفظه الاجيال، ويتفولذ بين سطوره الفتيان، ويحفن الرجال من صفحاته حفنات غالية من تراب الوطن يحفظونها في صدورهم.

ادب يجعل نسوتنا يرين انفسهن في ام سعد، وام سعد في انفسهن.

ادب يجدد في ضمائر الاجيال هدف العودة الى حيفا، مهما طالت السنون، ومهما تكالبت ذئاب الليل، ومهما تعاظمت التوءات وتعرجات الدرب.

لقد اتحد جسم غسان الذي تطاير شظايا شظايا بفعل تفجير سيارته على يد فاشيي القرن العشرين، بينما دماؤه تواصلت مع دماء القسام، لتتواصل معها دماء شاديه ابو غزاله ودلال المغربي وشهداء الناقورة والراعي، ولتتواصل مع دماء ابو جهاد وشهداء الانتفاضة، ان هذا التواصل العظيم من الدماء بمثابة سيل الثورة القوي الذي آجلا ام عاجلا سيجرف ظلال المحتل الثقيلة عن ربوع وطننا الغالي، فها هي انتفاضتنا الجبارة يا غسان تقرع الخزان بقوة وعنفوان، وها هو صوت الطرقات على جنباته يصل الى جميع بقاع العالم، من اقصاه الى اقصاه، يبلغ الامانة، ويترجم الحلم الذي وصل جسمك، بينما هو بقي ماثلا منتصبا فوق جبال جرزيم وعيبال، وبين بيارات غزة وقلقيلية، وفي سهول جنين، وفوق مآذن وكنائس القدس، وفي عيون بيت ساحور، وفي موجات بحر عكا، وفي ازقة وحواري الناصرة.

سبعة عشر عاما على رحيلك يا غسان، سنوات حافلة ومكثفة، وثورتك تنجو من مؤامرة لينصبوا لها شباك مؤامرة اخرى، انه الثالوث المعادي يا غسان الذي عنه طالما كتبت وتحدثت وحذرت، انه العدو اللدود الذي يتربصنا ليل نهار.

سبعة عشر عاما يا غسان من النضال المتواصل، ليس ضد الاعداء وحسب، بل وضد من جمعتنا معهم سفينة التحالفات المرحلية، هؤلاء الذين نشطوا في السنوات الاخيرة بشكل لم يسبق له مثيل، من اجل حرف شراع هذه السفينة وتوجيهه صوب مبارك وحسين وفهد، صوب البيت الابيض الذي صيغت فصول مأساتنا بين اروقته.

سبعة عشر عاما على رحيلك، لكن مآثرك بقيت حية وستبقى، يتمثل بها الرفاق في جميع ارجاء الوطن، وصوتك سيظل ينتقل من مدينة الى مدينة، ومن قرية الى قرية، ومن مخيم الى مخيم، يهمس في اذن امرأة اجهضها غاز اعداء الانسانية:- تشجعي واصمدي انها ليست النهاية.

ويحاور امرأة اخرى في مخيم الدهيشة، تبكي ابنها الشهيد:- صبرا يا اختاه، فكل شيء يهون في سبيل عيون الوطن.

رحلت يا غسان منذ سبعة عشر عاما، لكنك بقيت "تستحم على شاطىء عكا... تحرس اسوار عكا، وتدافع عن ارض الوطن... تستل سيف الكلمة... لم تغرسه في الظهر، حفرت به عميقا في وجدان هذا الوطن، وفي قلب هذا الشعب". (٢)

سبعة عشر عاما على رحيلك البطولي ترجمت فيها القول الرائع الذي كتبه بالدم رفيقك الذي تتقاطع معه في مزايا كثيرة، نيقولاي اوستروفسكي

"الحياة اعز شيء للانسان، انها توهب له مرة واحدة، فيجب ان يعيشها عيشة لا يشعر معها بندم معذب على السنين التي عاشها، وليستطع ان يقول وهو يحتضر، كانت كل حياتي، كل قواي موهوبة لاروع شيء في العالم، النضال في سبيل تحرير الانسانية". (٣)

الانسان قضية

حياة العظام في التاريخ البشري، غنية بالمواقف، بالافكار، بالتضحيات، بالمشاعر، فيها من الدروس والعبر ما هو جدير بالدراسة والهضم، وعندما نتحدث هنا عن البارزين في التاريخ، فاننا لا نقصد بالطبع اولئك الذين برزوا بوحشيتهم وهمجيتهم واراقتهم للدماء، وانما نقصد الذين احترقوا كالشموع في سبيل الانسانية ومستقبلها ورفاهيتها، سواء باكتشافاتهم العلمية المفيدة، او بنضالهم الدؤوب الجسور ضد سالبي حرية الانسان، او اولئك الذين كدوا وسهروا وهم يكتبون للاجيال نتاجاتهم المختلفة لتكون مشاعل تكشف للعابرين الطريق، وتصوب المسير.

وحقيقة ان اي مفكر، اي مبدع اذا لم يمازج ويزاوج بين فكره وممارسته، يكون متناقضا مع نفسه، يعيش ازدواجا في الشخصية، اي ان كتاباته في واد، وسلوكه في واد آخر.

وقد نبه لينين لهذه القضية الهامة والرئيسية وحذر من انفصال النظرية عن التطبيق، هذا الموضوع الذي تعاني منه حتى نخاع العظم معظم الاحزاب الشيوعية العربية التقليدية، التي بقيت برامجها واطروحاتها تجتر نفسها على الورق عشرات السنين، تنتظر التطبيق الذي بقي

غائبا وسيبقى، ما دامت هذه الاحزاب تائهة بين ما تطرح وبين ما تمارس على الارض.

لذا علينا ان لا نستغرب تقهقر هذه الاحزاب وتراجعها وانفضاض الجماهير من حولها، واذا لم تتدارك هذا المرض الخطير، واذا لم تعمل بشكل جدي على تصحيح مسيرتها بثورية شجاعة، فان عجلة التاريخ لا ترحم، ولا تقرع ابواب النائمين لتوقظهم وتقدم لهم قهوة الصباح، بل تظل سائرة، ومن يتخلف عن مواكبتها يظل متحوصلا معزولا يتآكل في هوامش التاريخ.

فمثلا لو تمحصنا في الجانب الآخر في حياة ماركس، الجانب المسلكي الاجتماعي، لوجدنا ان مواقفه الصغيرة في حياته اليومية الاجتماعية تنسجم انسجاما كاملا مع الافكار العظيمة التي طرحها في مؤلفاته القيمة، الامر الذي اعطى هذه الافكار تماسكا وقوة، فالمناضل يظهر في المواقف الصغيرة قبل الكبيرة، والذي يعجز عن تنفيذ المهام المتواضعة لا يستطيع تنفيذ ما هو اكبر منها، فجميع الذين عاصروا ماركس اجمعوا على تواضعه الثوري، وعلى عمليته، واندماجه الكامل في قضايا العمال، حيث كان بيته مفتوحا باستمرار لهم، رغم وضعه الاقتصادي البائس، يستمع اليهم بطول نفس، يقف عند كل صغيرة وكبيرة من مشاكلهم، يستوضح احوالهم بدقة وصبر، لانه اول من يدرك، ان من يريد

ان يعلم الطبقة العاملة، يجب ان لا يكون بعيدا عنها باي حال من الاحوال.

وما ينطبق على ماركس ينطبق ايضا على انجلز الذي كان يمكث ساعات طويلة في مقاهي العمال ومجالسهم، يستمع اليهم ويستمعون اليه، وعندما كتب عن معاناة العمال في بريطانيا، مكث شهورا طويلة في احياء العمال الفقيرة هناك، عايش حياتهم لحظة بلحظة، فخرجت كتاباته واستخلاصاته، علمية، امينة، ولم يؤثر قط ان يسلك سلوك باحث اكاديمي مترفع يحشر نفسه في مكان مرفه، يسجل ويدون الافكار بجمود عن ظاهرة، هو ابعد ما يكون عن التماس بها. (٤)

وفي هذا الصدد نستذكر البعض من الشعراء الذين نظموا او لنقل صنعوا القصائد الطويلة عن حياة البؤس والتشريد التي يعيشها شعبنا، هؤلاء الذين حاولوا تصوير المخيمات وازقتها واوحالها، بينما لم يكلفوا انفسهم عناء التجوال في هذه المخيمات ساعة واحدة من الزمن، فاي منطق غريب في هذا، ان تكتب عن مخيم بلاطة او صبرا او اليرموك او الحسين، وانت تعيش في شقة مترفة على شاطىء البحر، او ان تتداعى في ظاهرك افكار القصيدة، بينما تقود سيارتك الامريكية الفارهة في شارع ابو النواس في العراق او الزمالك في مصر، بالتأكيد ستكون هذه القصيدة متكلفة، تطغى عليها

الصنعة الادبية، كلماتها وتعابيرها جامدة، غير حية، كتلك القصائد التي كان ينظمها شعراء بني امية والعباس، يمدحون زورا وبهتانا هذا الامير او ذاك، من اجل الشهرة والتكسب ليس الا.

يقول حنا مينا في كتابه كيف حملت القلم "ان انطون، بافيلوفيتش، تشيكوف، كاتب القصة الروسية العظيم، فقد كان مثقفا كبيرا في عصره، وكانت ثقافته من الكتب لا تكتمل الا بالثقافة التي يحصل عليها من الناس، وقد ذهب الى جزيرة - سخالين - ليرى احوال المثقفين ويكتب عنها، لانه لا يريد ان يكتفي بما قرأ وسمع عن الاحوال البالغة السوء". (٥)

وفي هذا الجانب ايضا يقول مكسيم غوركي "ان الحياة والانسان مصدر كل علم، نعم ان الناس يعلمون الناس في الم وقسوة، ولكن العلم وحده هو الذي يبقى ثابتا راسخا".(٦)
ان المفكر الثوري، والكاتب المبدع، الذي يعيش قضية، يعطيها، ويضع جميع طاقاته وامكاناته في خدمتها، لا يهمه ابدا حجم تضحيته، وانما الذي يظل شاخصا امام عينيه الهدف، ومقدار بعده او قربه منه.

حقا الانسان قضية، اذا عايش هذه القضية بكل جوارحه، اذا كان امينا صادقا في التزامه بها، واذا ما

سخر من اجلها مفاهيمه النظرية وتطبيقاتها، يكون هذا الانسان حقيقيا يستحق ان يخلد اسمه ويبقى على الدوام.

فالمناضل الشيوعي يوليوس فوتشيك، بقي متمسكا بواجبه نحو انسانيته حتى اخر ايامه، ظل منسجما مع ذاته، معطاءا، بينما لا يفصله عن حبل المشنقة سوى بضعة ايام... وعلى ايقاع الموت انتج للبشرية كتابه الرائع "تحت اعواد المشنقة"، هذا الكتاب الذي يتمثله المناضلون الحقيقيون ويتشربونه جملة جملة، فهو بالنسبة لهم قرآن الصمود وانجيل التضحيات، لان حروفه مجبولة بدم مناضل فذ لم يلن ولم يستكن امام جبروت وعنجهية الجلاد.

يقول فوتشيك:-
"اننا نحن الشيوعيين، نحب الانسان - فكل ما هو انساني ليس غريبا عنا، واننا لنعرف قيمة اقل المسرات الانسانية ونعرف كيف نقدرها - ولذلك فاننا لا نتردد مطلقا في التضحية بمصالحنا الشخصية لكي نفوز بمكان لائق تحت الشمس من اجل انسان حر سليم مرح لا يتعرض لارهاب نظام الفوضى والاستغلال، سواء كان ذلك بسبب فظائع الحرب او بسبب البطالة". (٧)

ونيقولاي اوستروفسكي - المحارب الشيوعي البطل،

الذي قاتل بشجاعة في صفوف الجيش الاحمر ضد اعداء الثورة، الذين تآمروا للانقضاض على ما انجزته ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى، لم يقعده المرض الشديد عن اداء دوره الثوري، وان كانت قدماه لم تقويا على حمله الى ميدان العمل والنشاط، فقد لجأ الى قلمه ليناضل من خلاله ويخدم القضية التي يعيشها، وعندما عجزت يده عن الامساك بالقلم، صار يناضل بلسانه الى ان اكمل الجزء الثاني من رواية كيف سقينا الفولاذ، الرواية الملحمة، المدرسة، التي تنظم وتصقل وتربي، انها بالفعل تشكل غذاءا دسما لكل من التحق حديثا بصفوف الثوريين، او لمن صمم تصميما اكيدا من الثوار على مواصلة المشوار، لقد انجز هذه المأثرة الانسانية وهو على فراش الموت، لكن ارادته ظلت تصارع الموت، تدحره وتؤجله جولة تلو اخرى الى ان انجز ما اراد.

كتبت آنا كرافايفا صديقة اوستروفسكي "غالبا ما كانت تطوف في ذاكرتي يداه النحيلتان المصفرتان اللتان كانتا تستلقيان دائما على البطانية، يداه عصبيتان حساستان للغاية، يدا رجل مكفوف البصر، والادق هو مشطا يدين، لانه لم يكن يقدر ان يحرك الا مشطي يديه، فان الداء الرهيب - التهاب المفاصل (وهو احد اسباب موته، كان قد سيطر على جسمه البائس سيطرة لا فكاك منها). (٨)

"ذات مرة قال على عادته في المزاح:-
"كأن كتفي وكوعي ليست لي، مسألة عجيبة!... لم يبق الا هذان لي، كل ملكيتي"

وفي واقع الامر اننا لو رغبنا في الاسهاب عن الرجال العظام في التاريخ البشري، الذين انسجموا مع انفسهم فكرا وممارسة، لطال الحديث وامتد، لكننا هنا، وما دمنا بصدد الحديث عن غسان كنفاني، المناضل الفلسطيني الذي شق طريقه في زحام المعانيات والتشرد، فانه لا بد لنا من ابراز بعض السمات الشخصية عند هذا القائد المربي، والتي بالفعل تستحق كل الاستحقاق ان نقتدي بها ونتمثلها، خاصة وان الدرب الذي نسير، درب غسان، درب الوطن، يقتضي المسير فيه، مزيدا من شحذ الهمم، ومزيدا من الانسجام مع الذات، لان زمن الاشتباك المتواصل الذي نعيش، وصل الاشتباك فيه ذروته، ولا مناص الا ان نواصل ونواصل، فاشتباكنا اشتباك حق، اشتباك طول نفس، اشتباك يشارك فيه الشيخ والطفل والمرأة والشاب، فلا احد مستثنى ابدا، فلا استثناء للذين يريدون وطن.

ان مرحلة النهوض والمد الثوري تتطلب منا ان نتمثل بالروح الاستشهاديه التي فجرت في غسان ينبوع العطاء، فالوطن او الموت، الحرية الموت، هذا الشعار الجيفاري الذي جسده غسان، عندما تفجر جسمه وهو في

طريقه الى عمله، فارتفع صوته الى الفضاء:- يا فلسطين قد لبيت النداء، فاهتزت اغصان البرتقال الحزين، اهتزت تحية واجلالا لروح هذا الفارس المقدام الذي اقسم وابر بقسمه، لانه كان يعلم ان العودة الى حيفا لن تكون بدون ثمن، وان العاشق لا يصبح عشقه حقيقيا الا اذا تعمد هذا العشق بالدليل والبرهان، ودليل غسان وبرهانه كان **من دم**
يقول د. يوسف ادريس
"احسست لاول مرة في حياتي بفخر اني كاتب من كتاب القصة القصيرة حين استشهد غسان كنفاني، فحياته حين انتهت هكذا، انتقل من حيث الكتاب الى حيث الابطال، وكان اول كاتب قصة يفعل هذا، بل، بالادق اول كاتب في كل تاريخ ادبنا العربي يعيش قضية الى حد الشهادة، احسست بفخر انني انتمي لغسان وانه من نفس جيلي، وان تاريخ الكتابة العربية الكتابة، وليست صنعة الكتابة، سيبدأ هنا..." (٩)

وفي الصفحات التالية، سنتوقف عند بعض مزايا ومآثر كنفاني، تلك المزايا التي جعلت فيه رمزا نضاليا وادبيا، يعيش فينا، يمدنا بالامل، ويبشرنا بمستقبل مشرق لا بد آت آت، فالامكانية برزت وتجلت على الارض الآن بسطوع، ولكي نحولها الى واقع، علينا ان نعمل ونتعلم، نتعلم ونعمل، نتعلم من الاخرين ذوي الجعاب الممتلئة، ونملأ جعاب الذين هم بحاجة الى زادنا، ونعمل مع الاخرين، ومن اجل الاخرين:-

١- الالتزام الحزبي والانضباط الصارم:-

التحق غسان بالعمل النضالي في سنوات مبكرة من حياته، حيث انضم لحركة القوميين العرب، وكان في الحركة مثالا يحتذى في العمل المثابر الخلاق على جميع الصعد، وعندما انطلقت الجبهة الشعبية في ٦٧/١٢/١١ بعد هزيمة الانظمة العربية الرجعية في حرب حزيران، كان لغسان دورا رائدا في سنوات التأسيس، فوضع كل طاقاته وخبراته الى جانب طاقات وخبرات رفاقه الاوائل في سبيل تثبيت لبنات تأسيسية صلبة وقوية، تكون قادرة على حمل واستيعاب بنيانا قويا وكبيرا، يصمد في وجه الصعوبات والعواصف الرجعية، التي حاولت جاهدة ان تقتلع جذور هذا البنيان منذ السنوات الاولى، لكن الاساس الصلب الذي وضعه جيل غسان - الرفاق الاوائل - مهدت لبناء تعاظم هيكله واتسع واصبح مستعصيا على الهدم، بناء اصبحت حجراته قادرة بالفعل على استيعاب كل الذين دفعتهم قناعاتهم لصب طاقاتهم في بحر المجموع، بحر الجماهير الشعبية الذي ترتفع امواج انتفاضته العملاقة وتمتد على طول الوطن وعرضه.

ان تشعب مهام واعمال غسان، لم تمنعه من اداء دوره الحزبي، الذي كان يتطلب منه يوميا الكثير من الجهد والوقت، خاصة وانه لم يكن عضوا عاديا ذو مهام

محدودة، فهو واحد من الاعضاء البارزين في الصف القيادي الاول الذين تناط بهم مهمات استثنائية، تحتاج الى دراية ووعي ودقة وسعة افق.

العمل الصحافي والكتابة الادبية واستقبال الوفود الاجنبية والمشاركة في المؤتمرات والندوات العالمية، لم تكن لتحرف غسان قيد اغله عن اداء دوره الحزبي اليومي، بل على العكس من ذلك، فان المحترف الحزبي بامكانه ان يجعل من كل هذه المهام المتشعبة روافدا غنية لحزبيته، تمد شجرتها بكل ما يلزمها، لتغدو اغصانها خضراء يانعة، تطرح ثمارا رائعة باستمرار.

وقد يتساءل البعض عن سر نجاح غسان في التوفيق بين اعماله ونشاطاته المتعددة؟ وحقيقة اننا نستطيع استشفاف جواب هذا السؤال، من العديد من المقالات التي كتبها عنه بعض معارفه، بعد استشهاده، بما في ذلك زوجته، حيث اجمعت هذه المقالات، على دقته وبرمجته لوقته واستفادته الكاملة منه، فلا مجال لاضاعة الوقت في قضايا هامشية تافهة، فلم يكن غسان يتساهل مع نفسه حتى في احلك الاوقات، يتحدى المرض بالعمل.

لقد ادرك تماما ان حياة العضو الحزبي تختلف اختلافا كبيرا عن حياة من هم سواه، لانه لا يعيش لنفسه بقدر ما يعيش من اجل قضية، اقتنع بها، لذا فالعضو يجب

ان يؤدي واجبه اولا باول، وان تأجيل اية مهمة من شأنه ان يفتح الباب امام تراكم "مؤجلات" تفرزها الايام، مما يضع العضو امام جملة من التقصيرات التي تقود الى التشتت وفقدان القدرة على العطاء. وفي الوقت الذي كان فيه المرض يفتك بجسد غسان كان يزداد عطاء وتفانيا، بل ان عطاءه قد شمل المجال العسكري، حيث كان العقل المخطط لعدد من عمليات الجبهة ضد العدو في داخل فلسطين وخارجها.. وكيف يقبل غسان ان يؤمن بالكفاح المسلح بدون ان يساهم في قيادة وتخطيط عمليات مسلحة؟ وللقراء ان ينظروا كم كان ذلك الانسان بحاجة للانضباط من اجل اداء مهامه، هذا الانضباط الصارم الحديدي الذي لا يتزعزع والنابع من قاعدة صلبة هي ان يهب الانسان نفسه بصورة تامة وكاملة للنضال "ومن يهب نفسه كاملة للنضال، فانه يغادر ميدان الترددات البرجوازية الصغيرة بصورة تامة، وهكذا كان غسان كجندي في الخندق، وكبروليتاري جماعي الروح ومنضبط في حزب البروليتاريا العظيم.

٢- التواضع الثوري:-

ان التواضع الثوري من السمات الهامة والاساسية التي يجب ان يتحلى بها المناضل، والمقصود بالتواضع الثوري عكس الغرور والترفع والنظر للناس وكأنهم ما دون. ولا نبالغ اذا قلنا ان نسبة عالية من الذين يلتحقون بالنضال، خاصة من المثقفين الثوريين غالبا ما يقعون في فخ هذا المرض الخبيث، الذي يعود استفحاله بالدمار والخراب، ليس على صعيد الفرد فحسب، وانما على صعيد المؤسسة او الحزب او الدائرة التي يعمل بها.

لقد مثل غسان نموذجا رائعا في التواضع الثوري، الامر الذي جعله محط اعجاب وتقدير من قبل رفاقه الذين يعمل الى جانبهم، ومن قبل الصحفيين والكتاب الذين كان على اتصال بهم، وايضا من قبل الناس البسطاء في المخيمات والاحياء الشعبية الذين خرج منهم، احبهم، كتب عنهم، واعطاهم بسخاء ولم يبخل في عطائه.

ان الشهرة والسمعة الفلسطينية والعربية والعالمية التي حظى بها هذا الكاتب المبدع، لم تخرجه عن طوره، ولم تسحبه الى برج الاستصلاء وانما زادته تواضعا فوق تواضع، فهو لم يصل الى المستوى الذي وصل، سوى لانه احب فقراء شعبه، اندمج فيهم، تحسس مشاكلهم عن قرب، من خلال انخراطه في اوساطهم، وليس عن طريق

قراءة التقارير والمقالات التي تتحدث عن معانياتهم، فزياراته الدورية للمخيمات والاحياء الشعبية بقيت منتظمة ومتواصلة، رغم انشغالاته وهمومه المتعددة، وغالبا ما كان يتجمع حوله الناس، ويشرع في التحدث لهم بلغة الخطيب الشعبي، المحرض، الذي يعرف حق المعرفة اللغة التي يفهمها ويتفاعل معها البسطاء كان يتحدث لهم بسلاسة وتلقائية وبلا تكلف او انجرار الى المصطلحات الطنانة الرنانة، "كليشيهات" المثقفين الاستعراضية، التي يستعملها البعض لابراز عضلاتهم الكلامية امام الناس فهموا ما اراد ام لم يفهموا - لا فرق المهم ان يستعرض ويتفذلك، وكفى -.

وفي هذا الجانب، فاننا لا نبالغ اذا قلنا ان سر نجاح غسان النضالي والادبي تمثل في تواضعه الثوري، فلو وضع نفسه في قالب المثقفين واغلق على نفسه الباب، وعاش مع كتبه ومقالاته، البعيدة عن التفاعل مع الواقع لما نجح في ان يبدع هذه المجموعة الرائعة من الروايات والاعمال الادبية المتنوعة الاخرى، هذه الاعمال التي نبضت فيها الحياة وجرى في شرايينها الدماء الحارة، وظلت حية، حيوية، محافظة على ابعادها الوطنية والسياسية والكفاحية والتربوية والتعبوية، ولو ابتعد كنفاني عن الناس واسترخى على كرسي مريح في احد صالونات التنظير، لما تحولت نتاجاته المتنوعة الى مادة تعبئة وشحن يتغنى بها الاطفال ويحفظها الرجال في صدورهم كوصايا لا تحتمل الخدش او التحريف.

يستحضرنا بالطبع ونحن نكتب هذه السطور، صورا استعلائية لبعض الكتاب (هذا اذا ما رضينا ان نستعمل كلمة الكتاب هنا، ولو من باب التجاوز) الذين ما ان يصدر للواحد منهم مجموعة شعرية او قصصية، بصرف النظر عن مستواها، حتى يركب حصان الغرور ويطلق لنفسه عنان الترفع واحتقار الاخرين، وكأنه بعد هذا الديوان الذي تسرح فيه الاخطاء النحوية وتمرح قد امتلك ناصية الكتابة، ووصل الى درجات الكمال... فاين هؤلاء من المبدعين؟؟ اين هم من ناظم حكمت وبابلو نيرودا وغوركي، وحنا مينا... واين هم من كنفاني؟؟

فأديب يكتب للناس ويحتقرهم ليس بأديب، وأديب يكذب على الناس ولا يستعمل قصصهم وحياتهم الا وسيلة لشهرته، لا يمكن باي شكل من الاشكال ان يكتب لنتاجاته النجاح حتى ولا (كانسان من الناحية الاجتماعية).

لقد كان كنفاني "جادا ووسيما... وليس من النوع الذي ما يكاد يلقاك حتى يفتح صدره على مصراعيه ويدلق كل ارائه عن الناس والحياة... كان قليل الكلام". (١٠)

اجل فغسان كان متحدثا لبقا، ولكن عندما يتطلب الموقف ذلك، يشد السامع بخفة ظله وثقافته ولا يفرض نفسه فرضا على مستمعيه، فهو يعرف متى يتكلم ومتى يصمت.

٣- غسان الزوج ومحب الاطفال:-

رغم مشاغل كنفاني وهمومه، لم ينس اطلاقا دوره الانساني كزوج عليه واجبات تجاه زوجته التي جذبها من عالمها الاوروبي، لتقف الى جانبه بصبر وجلد، تضع نفسها في خدمة القضية الفلسطينية، وهذا الامر يبدو واضحا من خلال ما كتبت أنا كنفاني، تلك الاوروبية التي زارت بيروت للمعرفة والاستطلاع، والتقت غسان الذي استقطبها ببراعته ولباقته وثقافته الواسعة وصدق انتمائه لشعبه وقضيته، لقد حطم في داخلها الكيان البرجوازي الغربي واستبدله بكيان انساني مرهف نبض للفقراء والمشردين من شعبنا، فراحت تكتب عنهم وتستحث الاوروبيين للوقوف الى جانبهم وتأييد عدالة قضيتهم، وباختصار فان كنفاني لم يحشر زوجته في اطار الحياة الزوجية المجردة، وانما جندها لخدمة القضية التي أمن بها... فهل يتمعن في هذا الموقف الكنفاني بعض مثقفينا الذين يتحدثون عن المرأة ودورها وتحررها، وعن اهمية اسهامها في الحياة النضالية الى جانب الرجل (في مرحلة قبل زواجهم)، ثم تنقلب المعادلة رأسا على عقب بعد الزواج، فترى البعض منهم (ونشدد هنا على البعض، لكي نتجنب الوقوع في خطأ التعميم) - يلحسون كل تنظيراتهم حول المرأة مجرد ان تصبح لهم زوجة، حيث يوصدون عليها الابواب، بعد ان يوقعوها في شراكهم الديماغوجي،

ليمارسوا معها دور الرجل الشرقي، الغارق في العادات والتقاليد من الرأس حتى اغمص القدم، اي ان رؤيتهم للمرأة تصبح تقتصر على دور ربة البيت والانجاب.

وبمناسبة الحديث عن كنفاني الزوج، الذي ترجم على الارض الموقف العلمي من المرأة، لا بد من تذكير المنفصمين ثوريا على صعيد المرأة، بان التوافق بين الفهم والممارسة، قضية يجب ان تحسم لصالح العلاقة الجدلية بينهما، فالطاقات النسوية الجبارة نحن بأمس الحاجة لها، وان تهميشها في هذه المرحلة يضر بالقضية ويعيق من عملية التحرر.

اما الحديث عن حب غسان للاطفال، فان مادته كثيرة خاصة ان حبه لاطفاله ولابنة اخته لميس، لم يكن معزولا عن حبه لعالم الطفولة - الذي كتب عنه، ورأى فيه المستقبل الباسم المشرق لهذا الشعب الذي عانى طويلا من الجور والظلم... ورسالته التي خطها لابنة اخته لميس تعد من الوثائق الهامة الدالة على تقديسه للطفولة واستشفافه صورة الغد الوضاء من خلالها.

كتب لها "وعندما اعطيك املي، عندما اجعله وقفا عليك وعليه، فمعنى ذلك انني اعطيك حياتي نفسها، يا حياتي نفسها، ومعنى ذلك انني اعطيك نفسي، يا نفسي، ولا اعتقد ان هنالك اغلى من نفس الانسان على نفسه، كي يقدمه الى من يحب ويأمل...

ايتها العزيزة:-
انت تصعدين الآن، فيما نحن بدأنا نهبط، لقد اوشك دورنا ان يتم... كان دور هذا الجيل اقصر دور لاي جيل مر في التاريخ، اننا نعيش لحظات حاسمة في تاريخ البشر، وهنالك الناس ينقسمون، معترك ومتفرج، اما المتفرج فلسوف يعيش جيله كله، ويمتصه حتى آخره، اما المعترك، فسرعان ما سوف يسقط، فالمعركة قاسية، وقدرته الانسانية لن تحتمل كثيرا، ولقد اخترت انا، ايتها الصغيرة، الا اكون متفرجا، وهذا يعني انني اخترت ان اعيش اللحظات الحاسمة من تاريخنا ومهما كانت قصيرة... وفي اللحظة التي سيتم فيها الاستقرار سوف لن نكون نحن ذوي نفع على الاطلاق، ولسوف يتولى القيادة جيل جديد، اما نحن، فلسوف نتنحى جانبا، هؤلاء "الاخرين"، يا صغيرتي، هم انتم... لسوف ندفع لكم من قلقنا ثمن اطمئنانكم، ولسوف تستقرون على حساب ثورتنا... ان مشيئة التاريخ ان نكون نحن، ونحن فقط جيل الانقلاب...."(١١)

اذن لم تكن نظرة غسان الى الطفولة نظرة سطحية، بقدر ما كانت نفاذة وصلت الى عمق العمق، لهذا فان اهتمامه بعالم الطفولة يعني وضع المقدمات الصحيحة لقادة المستقبل وبناته، فاذا كانت المقدمات صحيحة، بالضروري ان تكون النتائج صحيحة، وعليه فان اي مجتمع يهمل تربية اطفاله ولا يمنهجها، ولا يخلق لهم

المناخ المناسب لكي يعيشوا طفولتهم، فعليه ان ينتظر مستقبلا ملفعا بالضبابية والغموض واللا استقرار.

حقا لقد اعطى كنفاني الاطفال، لانهم بدورهم قد اعطوه ونبهوه الى نبع المعاناة، الى الجذر. الى العمق، فاحتكاك غسان بالاطفال عندما كان معلما في احدى مدارس وكالة الغوث في سوريا، شكل نقلة نوعية في حياته، نقلته من دائرة التأملات الى دائرة التفاعل العلمي والعملي مع جوهر الطفولة الفلسطينية التي صاغتها وشكلتها عوامل التشرد والفقر والاهمال.

"ذات يوم كان يحاول ان يعلم الاطفال ان يرسموا تفاحة وموزة، فقد كان عليه ان يتقيد بالمنهج المقرر - وعن هذا الموقف يقول:- عندما كنت احاول ان ارسم الرسمين على اللوح باكمل وجه ممكن، انتابني شعور بالغربة وعدم الانتماء..... واذكر جيدا بانني شعرت في تلك اللحظة بان علي ان اقوم بعمل ما، اذ انني ادركت بوضوح قبل ان استطلع وجوه الاطفال الجالسين ورائي، بان لم يسبق لهم ان شاهدوا تفاحة او موزة، وبالتالي كانت هذه الاشياء اخر ما يثير اهتمامهم.... ونتيجة لذلك محوت الرسوم على اللوح وطلبت من الاطفال ان يرسموا المخيم".

وعن هذا الموقف تقول رضوى عاشور:-
"كان قرار كنفاني قرارا محوريا في حياته، لقد اختار ان يوقف الفصل التعسفي بين الانسان والمدرس والطفل والتلميذ... الفصل بين الوطن والتعليم والحياة والفن، اختار ان يوقف تجزئة الانسان وتحويلها لعدد من الوظائف المتصارعة والمتضاربة"(١٢)

٤- غسان الاديب والصحفي:-

اجمع غالبية النقاد والمختصين في الادب العربي، ان كنفاني قد نفخ الروح للرواية الفلسطينية، وارتقى بها لتتبوأ مكانا مرفوعا في سلم الادب، لا على الصعيد العربي فحسب، وانما العالمي، وذلك من خلال ترجمة اعماله الادبية او الكتابة عنها في العديد من الصحف والمجلات والنشريات الادبية العالمية، لذا فان نيل كنفاني للجوائز الادبية الرفيعة لم يكن صرفيا او اعتباطيا، بقدر ما جاءت هذه الجوائز تتويجا لجهود ابداعية استحقت الاحترام والتقدير، حيث نال في عام ١٩٦٦م جائزة اصدقاء الكتاب في لبنان، لأفضل رواية، عن روايته "ما تبقى لكم"، وجائزة منظمة الصحافيين العالميين عام ١٩٧٤م، وجائزة اللوتس، التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وافريقيا عام ١٩٧٥م.

لقد اخرج كنفاني الرواية الفلسطينية من حالتها الجمودية التقليدية ومن قالبها المحافظ الغارق في الشكل على حساب المضمون، وجعلها تتناسب مع متطلبات المرحلة ومقاييسها، كما انه لم ينجر لمجارات موضوعات الروايات الكلاسيكية السابحة في الخيال والملفعة بالمغامرات الرومانسية، بل غمس قلمه في الواقع ليتشرب دماء شعبه وعرقهم وتضحياتهم ومعانياتهم، فكانت فلسطين الوطن والشعب، فلسطين

الوطن المسلوب والمصلوب بحراب المحتلين، الموضوع المركزي لجميع نتاجاته الادبية.

يقول فاروق وادي في كتابه "ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية"، خلال السنوات الممتدة من ١٩٤٨ - ١٩٦٧م، لم تكرس المحاولات الروائية الفلسطينية سوى اسم واحد، هو غسان كنفاني، الذي قدم عمليين متميزين - رجال في الشمس - ثم - ما تبقى لكم - عام ١٩٦٦م، اما عدا هاتين الروايتين، فان الاسماء والاعمال الاخرى لم تعد تحظى الا باهتمام الدراسية الاكاديمية"(١٣)

ورغم ان كنفاني كان يحترف الصحافة ويمارسها كعمل يومي، لم تتأثر نتاجاته الادبية باي حال من الاحوال بالاسلوب الصحفي الذي يتميز بالمباشرة والتعابير السياسية ذات الايقاع الخاص، لانه كان قادرا على ممارسة هذين اللونين بطريقتين مختلفتين، وان كانتا تخدمان نفس الهدف، نفس القضية، لكن الصحفي هو غير الاديب، والصحافة هي غير الادب، وهذا الموضوع لم يحسن التعامل معه، بعض الصحفيين الذين جربوا حظهم في الادب، فوقعوا في ازدواجية قاتلة، بحيث طغت لغة الصحافة واسلوبها على نتاجاتهم الادبية التي لبست الثوب المقالي الجاف.

وفي مجال الحديث عن الصحافة والادب، يجدر بنا الاشارة، الى ان مهنة الصحافة تفتح امام الاديب المتمكن آفاقا رحبة عن الحياة والناس، فهي توفر لممتهنها امكانيات خصبة للتعايش مع مشاكل الناس والاندماج في قضاياهم، فالانسان اذا مارس مهنة الصحافة والادب على حد سواء، وامتلك زمام كل من الجانبين بمهارة وفن، ولم يخلط بينهما، بمعنى ان لا يسمح للغة الصحافة من احتواء نتاجه الادبي، وبالمقابل لا يقولب مقالته السياسية بقالب ادبي بحت، يكبلها، ويمنعها من الانطلاق والانعتاق والايفاء بالمطلوب.

فاذا توفر في الكاتب المبدع احساس الاديب ورفاهيته وذوقه، الى جانب "ديناميكية" وحيوية وخبرة الصحفي، واتقن تجنيد هذه المجالات في خدمة بعضها البعض، عن طريق الخبرات والمعلومات والترابط، وليس بواسطة الباس هذا النمط ثوب الآخر، يستطيع هذا الكاتب ان يقوم اعمالا ناجحة.

وغسان استفاد من جميع مهاراته ومعارفه ووضعها في خدمة الادب، لكن دون ان يخلط، ودون ان يكون ذلك على حساب الشكل الفني، فالادب فنيا هو الادب وليس اي شيء اخر، ولكي يكون الادب، من الضروري ان يستند الى خبرة ومعرفة واحساس مرهف، وقدرة فائقة على الملاحظة والاستنباط، ويحتاج ايضا الى لغة قوية وحدث وترابط منطقي وقصصي، وباختصار لقد صب

غسان خبراته في القناة الادبية سواء كانت النضالية او الصحفية او التعليمية او .من الرسم... الخ، مما مكن نتاجاته الادبية من الوصول الى مرتبة الابداع بجدارة - وفي هذا الصدد ذكر:

"لم يستطع التوقف عن الكتابة لحظة واحدة في السنين الخمس عشرة الاخيرة من حياته، اذ كان عليه ان يحقق تكامله النفسي كفلسطيني اولا ثم كأديب معاصر واخيرا كسياسي فاعل عن طريق الكلمة باشكالها جميعا بطاقاتها جميعا، باساليبها، فكانت القصة وكانت الرواية، وكانت المقالة الفكرية، وكانت الدراسة، وكان التحقيق الصحفي...(١٤)

فمجالات كنفاني كانت متعددة، متلونة، وقد نجح وبدقة الفنان المحترف في توظيف الكلمة لتقوم بدورها في مكانها، في مجالها، في نمطها، وهذا التنوع هو الذي جعل كتاباته تتميز بغزارتها، التي كان يسابق بها الزمن، فلم يكن امامه خيار الا ان يكتب لشعبه وعن شعبه، فالوضع صعب ومعقد، والاعداء متغطرسين ومتكالبين، والمحيط العربي الرجعي يتربص بالقضية، والجماهير الشعبية يجب ان تمارس دورها بوعي وتنظيم.

القلم المتميز الناضج مطلوب منه ان يعطي بكثافة، فالموسمية في العطاء لا تخدم الوضع المتحرك، المتشابك...

وبالطبع الحديث هنا، عن القلم المجرب، القادر، اما القلم المبتدىء، غير المتمكن، فان الغزارة، ستدفعُ نتاجه بالركاكة والهشاشة وبالتالي الفشل في اداء الدور المنوط به.

يقول الكاتب التقدمي حنا مينا "ان حامل القلم هو حامل قضية، وهذه القضية مشتركة، فلا يستطيع الوقوف بها، وحده، ولا سبيل الى الاستقلال بها، او التفرد في مسؤولية تأثيرها، ومن هنا يترتب عليه الحق في ان يكون في قضيته عاما لا خاصا.. فحين يكتب عن الامبريالية، الصهيونية الرجعية... تصبح كتاباته قاسما مشتركا مع الملتقي، ويصبح هو المؤدي، محقوقا بان يكون الحقيقة وكل حقيقة هي التاريخ...."(١٥)

وعلى هذا الاساس، فاننا لا نجافي الحقيقة اذا قلنا ان كتابات كنفاني عاشت مع الناس وستعيش معهم، لانها ارهفت لشعب، مرحلة هامة من تاريخ قضيته، بقيت خالدة، حية في ضمير ابناء شعبنا الذي حاول الاعداء جاهدين شطب شخصيته الوطنية وقلع جذورها، واستبدالها بشخصية مشوهة، خليط، لا تمت للاصالة باي رباط، فالجرافات الضخمة وآلات الهدم، وان استطاعت ان تهدم هذا الجدار او ذاك، وان نجحت في ازالة بعض المعالم التاريخية، فانها فشلت في تذويب حضارة شعبنا، ضاربة الجذور في عمق التاريخ... وهذا لا يعني ان

كنفاني قد غلب الخاص على العام، او انه اهمل عملية الترابط الجدلي بين الاثنين، فهو عندما كتب عن معاناة الشعب الفلسطيني الرازخ تحت الاحتلال الصهيوني الاستيطاني، كان يدور في ذهنه الشريط الطويل للاستعمار القديم الحديث، هذا الشريط البغيض الذي يحمل صورا قاتمة للاضطهاد والقمع الدموي الذي جثم ويجثم على صدور الشعوب، فجوهر الاضطهاد القومي واحد، وجوهر الاضطهاد الطبقي هو واحد، ولو اختلفت الاشكال والساحات والتسميات.

يقول كنفاني "عندما اصور بؤس الفلسطينية، فانا في الحقيقة استعرض الفلسطيني كرمز للبؤس في العالم اجمع، وبامكانك القول بان فلسطين تمثل العالم برمته في قصصي، ففي وسع الناقد الادبي ان يلاحظ بان قصصي لا تتناول الفرد الفلسطيني ومشاكله فحسب، بل تتناول حالة انسانية لانسان يعاني من المشاكل اياها، ولكن ربما تلك المشاكل اكثر تبلورا في حياة الفلسطينين" (١٦)

وكتكثيف لاي كلام يمكن ان نسجله حول ادب كنفاني، فاننا نقول ان الكتاب والمختصين بالادب قد كتبوا عن نتاجات غسان المبدعة الكثير الكثير، وان معظمهم قد انصفوه واظهروا بصدق وتجرد اي كنوز ثمينة قد تركها غسان في المكتبة العربية، لكن الاوسمة

التي منحها ويمنحها لشهيد فلسطين اطفال غسان الذين احبهم واحبوه تبقى اثمن من اية اوسمة ادبية، فهي ابدية ومميزة، لانها تحمل عهد الدم ولون الدم، فها هم اطفال كنفاني في المخيمات والقرى والاحياء يخرجون من روايات كنفاني ليجسدوا البطولة على الارض، ها هم يحرقون الارض تحت اقدام المحتلين ويواصلون مسيرتهم في اجواء من القتل والتنكيل، لكنهم يواصلون، ما دام الوطن قد ناداهم... ها هم اطفالك يا كنفاني يهتفون في ذكرى استشهادك، بان القضية التي احببت، هي امانتنا الغالية التي سنحافظ عليها ونصونها، مهما بلغ الثمن، مهما علت التضحيات.

وبعد، فان لغسان سمات اخرى كثيرة لا تتسع لها هذه العجالة، ومنها الجماعية ونكران الذات، والاخلاص المطلق للقضية الوطنية والطبقية، وكذلك الصلابة المعنوية الرفيعة التي لا تعرف التردد ولا المهادنة، اضف الى ذلك سمة الصراحة والمباشرة، واستخدام اسلوب المكاشفة الصريحة في التعامل مع الرفاق والجماهير بشكل عام بدل اللجوء للنميمة والاستغابة، وفي حركة القوميين العرب، وبعدها في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كان غسان كنفاني دينمو نابضا بالعطاء والتجدد والتجديد المستمرين، واسهم بروحه الشبابية المتوقدة في دفع وتسريع مسيرة التحول من تنظيم برجوازي صغير الى حزب ماركسي، لينيني.

ونود لو تتسع صفحات هذه النشرة لنتحدث عن سمات اخرى واخرى ولكن هيهات.

الزمن من دم

الذكرى السابعة عشرة لاستشهاد المناضل الكبير غسان كنفاني، لها في زمن الانتفاضة معان ودلالات كثيرة، فزمن الانتفاضة يختلف عن اي زمن آخر، انه زمن التوتر والانشداد والغليان، زمن التضحيات الجسام، زمن محاربة المظاهر الاستهلاكية، زمن الاشتباك العنيد مع من يعاكسون في مسيرتهم اتجاه عجلة التاريخ.

ان الذكرى السنوية لاستشهاد غسان تتزامن مع تصعيدين، الاول يمثله اصحاب الحق (جماهيرنا الشعبية)، والثاني تصعيد الاجرام، تصعيد الموت والدمار الذي يقوده شامير ورابين. ان الصراع بين القطبين المتناقضين يحتدم الان بضراوة، ولكي نحسم الصراع لصالحنا كاصحاب حق، ونبرهن على ارضنا الحتمية التاريخية، حتمية انتصار الشعوب المضطهدة، حتمية تكنيس المحتل الغاشم عن ارض انتزعها عنوة من اصحابها الشرعيين، فانه يتحتم علينا ان نكون امينين ومخلصين في ايفاء شهداء ثورتنا حقهم في التكريم والتخليد، والوفاء لهم يعني بداهة الحفاظ على القضية التي استشهدوا من اجلها، والذود عنها من اي مس وتفريط، والوفاء لهم يعني ايضا تعميق جذورنا

ومدها في احضان ارضنا، ليتقوى ويتلاحم ارتباطنا بها، وارتباطها بنا، وبان نتمثل مواقف ومسلكيات رموزنا الشهداء البررة الذين وفوا بما عاهدوا شعبهم عليه.

ان نضالات شعبنا، قد دخلت ومع اشتعال فتيل الانتفاضة، مرحلة نوعية، مرحلة النهوض الثوري العملاق، الذي يقابل بهجمة معادية حاقدة، تهدف اخماد هذا اللهيب الثوري، لان استمراره بالنسبة لنا، يعني تحويل الامكانية الى واقع يكلل باكليل الاستقلال، العلم الوطني، الدولة المستقلة، وعليه فان بقاء هذا اللهيب مشتعلا يحرق قلوب الاعداء مهمة كل الشرفاء الاوفياء من جماهيرنا الشعبية، مهمة الذين حملوا راية شهدائنا واقسموا على المضي قدما في نفس الطريق الذي تلون بلون دماء من سقطوا وعيونهم ترنو الى الشمس.

وسجل الخالدين في الضمير الفلسطيني انحفرت على صدره اسماء بارزة خالدة ابد الدهر... اسماء تحول اصحابها الى نماذج تحكي قصص التضحية والبطولة والاقدام.. اسماء ترمز للارض والانسان، ترمز لعشق الحياة، لدرجة الموت من اجلها، في سبيل تحقيق حياة للاخرين من شعبنا، يغيب عنها الاضطهاد والقهر... حياة لا يكون فيها مغتصبين وقتلة... حياة تتربع على طولها وعرضها كل معالم وتجسيدات الحرية، فان تموت

من اجل حرية الاخرين، يعني الموت في سبيل قضية، يعني تجسيد انسانيتك واعطاء هذه الانسانية مضمونها الصحيح وشكلها الصحيح، تماما كما فعل كنفاني قبل سبعة عشرة عاما، وكما يفعل اليوم ابطال انتفاضتنا العملاقة الذين تحول استشهادهم الى وقود يمد الانتفاضة بالطاقة والاستمرارية، ويجعل منها ظاهرة تستعصي على اعداء الظواهر الثورية.

وفي الحقيقة عندما اخترنا الكتابة تحت هذا العنوان الفرعي "الزمن من دم"، كان كل تفكيرنا متركز نحو انتفاضتنا العملاقة، والتي للمرة الثانية على التوالي تتصادف فيها ذكرى استشهاد المناضل غسان كنفاني...

اليوم يردد رفاق كنفاني ومن يسيرون على طريقه، ان الزمن من دم، يرددون هذا القول الثوري الحار ويجسدونه بالفعل والممارسة والابداع، كما ترجمه كنفاني في السنوات العصيبة من عمر ثورتنا.

لقد كان غسان يؤمن باستثمار كل دقيقة من وقته، فهدر الزمن والتلاعب فيه سمة ملازمة للفوضويين العبثيين الذين يعيشون لذواتهم فقط، وليس للثوريين الجذريين الذين يحملون على اكتافهم لواء قضية هامة، ومن اجل ذلك دخل غسان في مباراة حقيقية مع الزمن، مباراة عطاء وابداع، مباراة عمل وتفان.

وفي هذه المرحلة النضالية المصيرية من تاريخنا الفلسطيني المعاصر، مرحلة كسر القيد عن المعصم، مرحلة الاستبسال... ذكرى غسان تنادينا... تجوب الشوارع والحواري تشد على يد الشبل القابض على حجر بينما تبحث عيناه عن هدف معاد... وتثمن شجاعة صبية انتزعت (ملثم) من ايد مجموعة من الجنود المدججين بالسلاح، وحررته من القيد ليعود الى المكان الذي ينتظره فيه رفاقه.... ذكرى غسان تنادينا... تستحثنا... تدب الحماس فينا، في كل المواقع والمرافق.

ذكرى كنفاني تهتف في اذن الحزبي... مزيدا من العمل والاصرار يا رفيق، مزيدا من الانضباط، فهذا زمن الانتفاضة، زمن شحذ الهمم ورص الصفوف، زمن التمرد على العدو وتمريغ انفه في الطين.

فحزبيتنا مطلوب منها الانسجام والاتساق مع المرحلة لا الاغتراب عنها... حزبيتنا في الانتفاضة هي حزبية الانخراط الكامل في حركة الفعل النضالي لا مراقبة هذه الحركة والاشادة بها من على الرصيف، فالوضع متحرك ومتشابك... ولا يجوز للحزبي ان يخلط بين الالوان... ممنوع عليه الاسترخاء او النظر للواقع المتغير بعيون مشدوهة غير قادرة على استيعاب ما يجري... انها الحرب، وفي الحرب يستحيل على الجندي ان يعيش بنفس الاسلوب الذي كان يتبعه في اوقات السلم، والا

فان عجلة الحرب سوف تطحنه، وامواج الصراع ستقذفه كتلة ميتة لا حول لها ولا قوة الى خارج الميدان... وما اصعب ان يكون المناضل في وقت الحرب خارج الميدان.

وعضو اللجنة الشعبية تطالبه هذه الذكرى بالبقاء على استعدادية وفي جاهزية عالية... تطالبه بالاستنفار الكامل، بالانشداد التام لدوره والمهام المنوطة به، فالحجر المتحرك بثقة وقوة صوب الهدف المعادي، هو اروع هدية تقدمها ايها الشبل المنتفض لذكرى بطلنا الشهيد.

والذكرى تطالب الصحفي، بان يرقب الحدث ويسجله بامانة، ويقولبه بطريقة صحفية مطعمة بالتعبئة والتحريض، تبرز بطولات جماهيرنا الشعبية، وتفضح سياسة المحتل وهمجيته بواسطة الخبر والمقالة التحليلية والتحقيق الصحفي، فالانتفاضة هيأت مناخا نموذجيا لصحافة ثورية حقيقية، وما على صحفيينا سوى التشمير عن سواعدهم وصب كل طاقاتهم وخبراتهم في طاحونة الانتفاضة، بدل ان يستغل قسم منهم الانتفاضة للمتاجرة بالكلمة وللولاء الرخيص، فانتفاضتنا تحتاج الى صحفيين مخلصين لها، يتطورون معها، وليس صحفيون يخلصون فقط لكراسيهم، فصحافة ربطات العنق والسيارات الفارهة والمكاتب الفخمة، هي ليست قطعا الصحافة التي تطمح لها جماهيرنا الشعبية،

فالصحفي الذي يبيع قلمه مقابل حفنة من الدنانير، ويجند نفسه "ببغاء" يردد على الورقة جمل المستسلمين، اصحاب التنازلات المجانية يسيء بوعي او بدون وعي الى قضية شعبية.

وبعد الحديث عن الصحافة والصحفيين، فان اخلاص غسان للصحافة التي قام من خلالها بدور الداعية والمحرض وحتى المنظم، قضية تفرض نفسها على اي مؤرخ يريد التأريخ للصحافة الفلسطينية، حيث ان علاقته بالصحافة لم تكن علاقة عادية، فهو قد آمن بها كواحدة من الجبهات العديدة التي ناضل عليها ضد الاعداء، وقد روى بعض معارفه انه عندما كان يشتد به المرض، يتناول الحقنة ويحقن ذراعه، وهو يجلس على كرسي مكتبه المتواضع ثم يواصل الكتابة... اننا في زمن الانتفاضة بأمس الحاجة الى اخلاص ووفاء صحفي من هذا القبيل لتتحول صحافتنا الوطنية الى "اداة جبارة للتأثير على الجماهير"، تقوم بدور الداعية الجماعي والمحرض الجماعي والمنظم الجماعي، كما يقول لينين". (١٧)

اما الطبيب، فدوره في الانتفاضة يتطلب العمل بشكل استثنائي، لا يربط وقته بساعات دوام محددة، تقيده وتحول بينه وبين اداء دوره الوطني الانساني، فرصاص الاعداء لا يعرف ساعات دوام، وشبابنا

وفتياتنا واطفالنا الذين تنزف جراحهم يوميا، لهم حق العلاج المجاني وتضميد جراحهم، حتى لو اضطر الطبيب ان يمشي على قدميه عدة كيلومترات للوصول الى مكان الجريح، فهذا جزء من الواجب، والواجب لا يستثني احدا.

وتدع الذكرى الفلاح للالتصاق بارضه، للالتحام بها، ولان يعطيها ويعطيها لكي تبادله العطاء بسخاء، فجماهيرنا في ظل الحصار الاقتصادي الصهيوني بحاجة الى كل حبة قمح والى كل ثمرة، وانتاجنا الزراعي يجب ان يتطور كما وكيفا، فالاخلاص لذكرى الشهداء الذين سقطوا من اجل الارض، يتطلب ان نعتني بالارض، ولا نترك شبرا واحدا منها بلا استصلاح.

الذكرى تحث الشاعر، والكاتب القصصي، والمهندس، وراعي الاغنام، وربة البيت، واعضاء اللجان العمالية واعضاء الاغاثة الشعبية والاتحادات الزراعية.... تحث اللجان النسوية ومعلمي التعليم الشعبي... تحث المثقفين والبسطاء من شعبنا الى بذل اقصى ما يستطيعون، فالوقت نفيس نفيس، والنضال لا يحمل لونا واحدا، بل انه متنوع ومتعدد الوجوه، وضريبة الانتماء، الضريبة الوطنية لا تعافي اي كان من جماهيرنا الشعبية...

صوت الوطن يتعالى.. فهذا نداء الواجب.

فالف لبيك يا وطننا الغالي

فالانتفاضة ستتصاعد وتستمر والنصر آت

والمجد والخلود لذكرى شهيدنا البطل

غسان كنفاني

المراجع:-

١- غسان كنفاني، الآثار الكاملة، ج٢ - المقتطف من مقدمة يوسف ادريس.

٢- غسان كنفاني، الشيء الآخر، دار الاسوار عكا، المقتطف من كلمة يعقوب حجازي على الغلاف الاخير.

٣- نيقولاي اوستروفيسكي، كيف سقينا الفولاذ، ج٢، دار "رادوغا" موسكو، "لاحظ الغلاف الثاني".

٤- كارل ماركس وفردريك انجلس، في ذكريات معاصريهما، دار التقدم، موسكو.

٥- حنا مينا، كيف حملت القلم، دار الآداب - بيروت.

٦- نفس المرجع السابق.

٧- يوليوس فوتشيك، تحت اعواد المشنقة.

٨- نيقولاي اوستروفسكي، كيف سقينا الفولاذ، الطبعة الجديدة، دار التقدم - موسكو "المقتطف من مقدمة الكتاب بقلم أنا كرافايفا".

٩- غسان كنفاني، الآثار الكاملة، ج٢، المقتطف من مقدمة يوسف ادريس.

١٠- نفس المرجع السابق - المقتطف ايضا من نفس مقدمة يوسف ادريس.

١١- غسان كنفاني، اطفال غسان كنفاني، لاحظ الرسالة الخطية المرسلة الى لميس.

١٢- جمال بنوره، دراسات ادبية، دار الاسوار عكا، المقتطف منقول عن رضوى عاشور.

١٣- فاروق وادي، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، دار الاسوار - عكا - المقتطف من ص ٣٥.

١٤- غسان كنفاني، الآثار الكاملة، المجلد الثالث، مقتطف من مقدمة جبرا ابراهيم جبرا.

١٥- حنا مينا، كيف حملت القلم، دار الآداب - بيروت.

١٦- جمال بنوره، دراسات ادبية، دار الاسوار عكا، ص ١٦.

١٧- أ.ب. يروخورف، الصحافة الاشتراكية، دار ابن خلدون، ص ٤٨.